مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

معرف الكائن الرقمي للمقال (DOI):10.54240/2318-011-003-005

جوانب من حياة المرأة في المجتمع الأندلسي

Aspects of a Woman's Life in Andalusian Society

اسم ولقب المؤلف: يخلف حاج عبد القادر-Hadj Abdelkader Ikhlef- صص94- 113
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ في التاريخ الوسيط- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1- الجزائر.
البريد الإلكتروني: ikhleforan31@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال:2021/06/25 تاريخ المراجعة:2021/07/07 تاريخ القبول: 2021/10/03

الملخص: فرضت عملية فتح الأندلس من قبل المسلمين عربا وبربرا عام 92هـ/711م ضرورة الزواج من أهل هذه البلاد من أجل الاستقرار والانتشار في ربوعها، فكانت عملية الارتباط تحدث عن طريق الزواج المختلط بالحرائر والزواج بالجواري الإسبانيات والجيليقيات والفرنجيات وغيرهنّ، من أهمّ الأسباب التي سمحت بتشكّل مجتمع متجانس الأعراق مختلف الديانات، يتعايش جميع أفراده في ظل دولة الإسلام وتحت راية حكمها، فكفلت للجميع حقوقهم مقابل أداء ما عليهم من واجبات، وكانت المرأة وراء كثير من التغييرات التي حدثت في المجتمع الجديد، باعتبارها قاسما مشتركا في هذا التمازج، حيث استطاعت أن تفرض وجودها في هذا الواقع زوجة كانت أم جارية، رافضة التهميش فعبّرت بشجاعة عن رأيها وأبانت عن شعورها وظهرت وفق إرادتها في أجمل صور التأنّق من لباس وحليّ، وشاركت الرجل في الحياة اليومية بمختلف مجالاتها، وسعت بخطى ثابتة نحو التحرّر وطلب مزيد من الحرّية، وقد انعكس ازدهار ورفاهية العيش بالأندلس على التطور الحاصل في مجتمعها، فخرجت من بيتها لمواضع مختلفة (المتنزهات- الرياض- الحمّامات- الجوامع- الأعياد- المناسبات ...)، وأكّدت تواجدها في أعمال ونشاطات متعدّدة (معلمة- طبيبة-

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

شاعرة- مغنية...)، وفرضت على الجميع احترامها محجّبة وسافرة، بل إنّ الرجل كان في كثير من الأحيان يرافقها ويزكّي ما كانت تنشده من تحرّر في سبيل تحقيق الأفضل في حياتها.

الكلمات المفتاحية: المرأة؛ مجتمع؛ الأندلس؛ الزواج؛ الحرائر؛ الجواري؛ المسلمون؛ المولدون؛ المستعربون؛ المظاهر الاجتماعية.

ABSTRACT: The process of conquest of Andalusia by Muslims, Arabs and Berbers in the year 92 AH / 711 AD, imposed the necessity of marriage with the people of this country in order to stabilize and spread throughout its territory. The races are of different religions, all of its members coexist under the Islamic State and under the banner of its rule. It guaranteed everyone their rights in return for the performance of their duties. The woman was behind many of the changes that occurred in the new society later, as a common denominator in this intermingling, as she was able to impose Her presence in this new reality was a wife or a maidservant, refusing to be marginalized, so she courageously expressed her opinion and expressed her feelings and appeared according to her will in the most beautiful forms of dress and jewelry, and participated in the daily life in various fields, and steadfastly sought towards liberation and asked for more freedom, which was reflected The prosperity and luxury of living in Andalusia depends on the development of its society, so she left her home to various places (parks - Riyadh - bathrooms - mosques - holidays - occasions...), and confirmed her presence in business And multiple activities (teacher - doctor - poet - singer...), and she was respected by everyone, veiled and open. In fact, the man often accompanied her and praised what she was seeking of freedom in order to achieve the best in her life.

Keywords: Women; society; marriage; multi-ethnic; Islamic State; wife; slave-woman; Andalusia; liberation; development.

مقدمة: تعدّ الأسرة اللّبنة الأساس في بناء المجتمعات البشرية منذ نشأة أوّل أسرة في تاريخ البشرية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بغضّ النظر عن اختلاف الأعراف والعادات والتقاليد والأديان. وتعتبر المرأة ذلك الوعاء الذي يحفظ النّسل البشري ويضمن استمراره وبقاءه. وقد شهد المجتمع الأندلسي في العصر الوسيط حركة ديمغرافية غير مسبوقة، يعدّ التدفّق البشري الهائل للفاتحين - الذي عرفته فترة الفتح، واستمرار توافد العنصر الجديد (عرب وبربر بصفة خاصّة) على هذا الصقع- أحد أسبابها، في حين مثّل الزواج واتّخاذ الإماء بالعنصر الإسباني المحلّي والعناصر المستجلبة من شرق أوربا سببا آخر للنمو

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الديمغرافي السريع الذي سيتولّد عنه مجتمع مختلف في عناصره لكنّه متجانس وموحّد في الإطار الأسري والروابط الاجتماعية، إنّه المجتمع الأندلسي الجديد خلال العصر الوسيط.

وسنركّز في موضوع بحثنا هذا على المرأة الأندلسية التي وإن لم تكتب المصادر عنها إلاّ القليل مقارنة بما كتب عن الرجل في صقعها، فإنّه لا مجال للمقارنة بينها وبين المرأة المغاربية، التي لم تحظ بنفس القدر من الكتابة. وإنّه من الأهمّية بمكان أن نشير إلى إشكالية بحثنا، التي تتمحور حول السؤال الرئيس التالي: ما هي مختلف المظاهر الاجتماعية التي تبرز لنا صورة المرأة في المجتمع الأندلسي الجديد ؟ ويتفرّع عن الإشكالية الأمّ أسئلة فرعية أهمّها: كيف تعامل أهل الأندلس وفقهاؤها مع ظاهرة الزواج في بلدهم؟ وهل يمكن الحديث عن زواج المرأة الأندلسية وما صاحبه من مظاهر اجتماعية أخرى على أنّه خصوصية أندلسية؟ وهل صحيح أنّ المرأة الأندلسية كانت أكثر تحرّرا من باقي نساء الأمصار في عصرها؟

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تكمن في ما سنتعرّض إليه في محتوى الموضوع الذي سنطرقه، وسنبيّن في خاتمته أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها في شكل خلاصة مختصرة للأسئلة التي طرحناها في إشكالية بحثنا هذا.

1- الزواج في الأندلس وما يسبقه من ترتيبات: يعدّ الزواج مظهرا من المظاهر الاجتماعية التي تبرز لنا صورة المرأة في المجتمع الأندلسي ما بعد الفتح، وأُعتبر البلوغ عند النساء علامة مميّزة تسمح بإمكانية خروجهنّ من مرحلة العزوبة للولوج في عالم الحياة الزوجية، لكنّ عقد نكاح البنت الصغيرة كان يمكن عقده قبل سنّ البلوغ، حسب ما ذكر لنا الفقيه الموثّق ابن العطّار[1]. وعموما فإنّ البنت تصبح فتاة يافعة إذا بلغت 12 عاما، وهو ما يؤهّلها للزواج، بينما كان السنّ القانوني الذي يسمح فيه بالزواج للفتى 14 عاما فما فوق، فقد ذكر ابن حزم أنّ أخاه أبا بكر توفّي عن 22 عاما، بعد زواجه من عاتكة بنت قند، وقد دام هذا الزواج 8 أعوام.[2]

ويذكر أنّه كان حينئذ من أحبّ الأعمال لكثير من العجائز الصّالحات ذوات العكاكيز والتسابيح[3] في الأندلس، أن تقوم بدور الوسيط في التقريب بين المقبلين على الزواج من الجنسين تمهيدا للخطبة التي تعدّ من شروط الزواج، وقد صرّح ابن حزم بذلك فقال:

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

"إنّك لترى المرأة الصّالحة المسنّة المنقطعة الرّجاء من الرجال وأحبّ أعمالها إليها سعيها في تزويج يتيمة أو إعارة ثيابها وحليها لعروس مقلّة".[4]

ويلي الخطبة عقد القران الذي يكون في مجلس يحضره شهود، ويتصدّره فقيه يقوم بإملاء الشروط والتاريخ[5] على الموثّق ليدوّنها، ويورد ابن العطّار بعض الأمثلة لعقد النكاح، حيث يذكر فيها مقدار الصداق نقدا (مقدّما) وكالئا (مؤخّرا)، وتسجيل الشروط المتّفق عليها بين طرفي العقد، وما كان يتعهّد به الزوج لزوجته، وما يلتزم به نحوها كعدم الزّواج عليها وألاّ يتسرّى معها ولا يتّخذ أمّ ولد، فإن فعل ذلك فأمرها بيدها، والدّاخلة عليها بنكاح طالق، وأمّ الولد حرّة لوجه الله العظيم،... وألاّ يغيب عنها غيبة متّصلة قريبة أو بعيدة أكثر من ستّة أشهر إلاّ في أداء حجّة الفريضة عن نفسه، فإنّ له في ذلك مغيب ثلاثة أعوام،... فإن زاد على هذا الحدّ فأمرها بيدها،... وألاّ يرحّلها من دارها إلاّ بإذنها ورضاها، فإن رحّلها مكرهة فأمرها بيدها. وألاّ يمنعها من زيارة جميع أهلها من النساء وذوي محارمها من الرجال، وألاّ يمنعهم من زيارتها فيما يحسن ويجمل من التزاور بين الأهلين والقرابات... وأن يحسن صحبتها ويجمل بالمعروف عشرتها جهده، وله عليها مثل ذلك، وإن كانت ممّن لا تخدم نفسها لحالها ومنصبها، وأقرّ بسعة ماله وقدرته على إخدامها لزمه ذلك بأن يحضر لها من يخدمها...".[6]

ولا يتمّ النكاح إلاّ بولي وصداق وشهود، وأقلّ الصّداق عند الإمام مالك ربع دينار[7]، ويستخدم في تجهيز الزوجة إلى بيت الزوجية، وكان أهل الأندلس يتباهون في جهازهم بأحسن اللباس والمتاع الذي تتجهّز به العروس، وفوق ذلك كان البعض ترغيبا في الزواج من بناتهم يقدّمون لهنّ هدايا تليق بمقامهم، كما فعل العلج تدمير صاحب أوريولة الذي صاهر عبد الجبّار بن نذير، فنحل ابنته قرية تَرْسَة القريبة من إلش، وقرية تلّ الخطّاب بناحية أوريولة[8]. بل قد تجد بعض الأشخاص رغم قلّة حيلتهم يتدبّرون أمر تجهيز بناتهم ولو ببيع ما يملكون لقاء الحصول على المال الذي يجهّزون به بناتهم، كما فعل "محمد بن أفلح غلام الحكم قال: دفعت إلى ما لا أطيقه من نفقة في عرس ابنة لي، ولم يبق معي سوى لجام محلّى، ولما ضاقت بي الأسباب قصدت المنصور بن أبي عامر بدار الضّرب حين كان

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

صاحبها،... فأعلمته ما جئت له، فابتهج وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسيوره، فملأ حجري،.. وعملت العرس، وفضلت لي فضلة كثيرة".[9]

ولا غرو إذا كانت هدايا العرس تصل إلى هذا الحدّ من الجود والكرم على البنات من قبل الآباء، ذلك أنّه إذا عرف السّبب بطل العجب، فكثيرا ما عزّ تزويج الحرائر في الأندلس، أمام كثرة السبي من الجواري وقلّة أثمانهنّ في المعرض، وخاصّة على عهد المنصور بن أبي عامر، "ففي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور؛ وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغّبون في بناتهم بما يجهّزونهنّ به مما ذكرنا، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرّة". ويسوق لنا ابن سعيد نقلا عن الحضرمي مثالا عن تجهّز العروس "من مرسية وَمن متفرّجاتها المشهورة الرّشاقة والزّنقات وجبل أيل وهو جبل شعبذات وتحته بساتين وبسيط تسرح فيه الْعيون".[10]

ويبدو أنّ العامّة في الأندلس كانت تسمّي الزّواج بـ"الجَلْوَه"، وفيه تلبس العروس أحسن ما عندها من الثّياب، وتكتحل وتخضّب كفّيها بالحنّاء[11]، وترتدي أغلى ما تملك من حليّ، وتضع تاجا فوق رأسها[12]، وكانت عادة أهل الأندلس أن يقام حفل العرس في الشّوارع، فتسمع من يزمّر في البوق ويغنّي، ومن يردّد الغناء بصحبته[13]. وقد منع أهل الحسبة آلات اللهو في الأعراس كالعود والمزمار وغيره، واستثنوا الدفّ المدوّر والكَبَر (الطبل)[14]، وأمروا بمنع ما أحدثته العامّة من جلاء العروسة على غير ذي محرم منها.[15]

2- أنواع الزواج في المجتمع الأندلسي: لم يقتصر الفاتحون المسلمون عربا وبربرا في زواجهم على الإسبانيات، بل كانت النساء التي تزوجنهنّ من أعراق مختلفة (إسبانيات- جليقيات- إفرنجيات..)، سواء تعلّق الأمر بالحرائر أو الإماء، وقد أطلق عليهنّ لقب أمّهات الأولاد.

1.2 الزواج المختلط (الزواج بالحرائر): لقد تحدّث المؤرّخون عن زواج الفاتحين بالإسبانيات، ويعزى ذلك إلى دخول معظمهم أفرادا دون نسائهم[16]، ثمّ أقبلوا على الزواج أو التسرّي بالنساء من أهل تلك البلاد، وكانت مصادر هذا الزواج سبايا الحروب، أو تجارة الجواري، أو عن طريق المصاهرة[17]. وقد كان زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير - في بداية عهد الولاّة- من أرملة لذريق (Rodrigo) أيلة (Egilona) التي تسمّيها المصادر العربية أمّ عاصم قدوة للكثيرين من بعده[18]، ومن ذلك زواج عيسى بن مزاحم من سارة القوطية

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

(Sara La Goda) بنت المونـد (Olmundo) بن غيطشة (Witiza)، جدّة المؤرّخ أبي بكر بن القوطية. وكان غالبية أمراء بني أميّة من نساء غير عربيات، بداية بأوّل أمراء الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية، الذي كانت أمّه "راحا" من سبي المغرب، وهي من قبيلة نفزة البربرية. وكان هو أول أمير أموي تزوّج وتسرّى بنبيلات وجوار إسبانيات.[19]

وكان من أمثلة الزواج المختلط- أيضا- زواج الوزير تمام بن عامر من أمّ الوليد بنت خلف ابن رومان النصرانية، التي أنجب منها بنتا كانت هي أمّ الوزير الكاتب عيسى بن فطيس، وتوجد أمثلة كثيرة عن هذا النوع من الزواج في عصر الخلافة، فقد كانت أمّ الخليفة الحكم المستنصر أمّ ولد تدعى "مرجان"، وقد تزوّج من صبح البشكنسية (Aurora) أمّ ولده هشام المؤيّد، بينما تزوّج المنصور بن أبي عامر ابنة شانجة ملك نبرة (Navara) فأسلمت وتسمّت باسم "عبدة"، فكانت أمّ ولده عبد الرحمن شنجول (Sanchuelo)، ويندرج ذلك في إطار المصاهرات السياسية. ويمكن الحديث في هذا الإطار عن الأميرة زايدة المسلمة (Zaida La Mora) زوجة المأمون بن المعتمد بن عبّاد، التي هربت إلى قشتالة بعد مقتل زوجها على يد المرابطين في قرطبة، فتزوّجها ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون، فانجبت له ولده الوحيد سانشو، الذي قتل سنة 501هـ/1108م في معركة إقليش (Ucles) أمام المرابطين.[20]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الزواج المختلط لم يقتصر على الأمراء والقادة فحسب، بل تعدّاه إلى عامّة أهل الأندلس باختلاف شرائحهم، كالشعراء والعلماء والقضاة وغيرهم، وكمثال على ذلك المؤرّخ ابن خلدون الذي تزوّج- أثناء زيارته للأندلس سنة 764هـ/1363م- من فتاة إسبانية تدعى "هند". وإذا كان الزواج المختلط ظاهرة اجتماعية لا يمكن نكرانها، فإنّ الزواج بالمرأة المسلمة العربية ذات الحسب والنّسب، كان يجعل الأبناء من أبوين عربيين يحوزون الشرف من طرفيه ويفاخرون غيرهم بأنهم من أصول عربية معروفة نقية الدّم، وواكب ذلك أيضا الزواج بالمسلمات البربريات.[21]

وقد نتج عن الزواج المختلط بالأندلس ظهور طبقة جديدة حملت اسم المولّدين (Muladies)، وكانت البداية مع الإسبان الذين أسلموا أثناء حركة الفتح وسمّيوا بالمسالمة، واندمجوا مع المسلمين بالمصاهرة، فبرز أوّل جيل من المولّدين في المجتمع الأندلسي. وكان

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

منهم شخصيات مرموقة فيما بعد، كأبي بكر ابن القوطية (ت367هـ/977م)، والكاتب الوزير عيسى بن فطيس في عصر الخلافة، وأبي محمد بن حزم القرطبي (ت456هـ/1064م) وابن بشكوال (ت578هـ/1182م) في عصر الطوائف. وإلى جانب المولّدين وجدت شريحة كبيرة من النّصارى، الذين بقوا محافظين على دينهم، وكانوا يعيشون تحت حكم المسلمين، وقد أطلق عليهم اسم المستعربين (Los mozárabes)، وظلّ كثير منهم محافظا على أسمائهم[22]. ومنهم مثلا: بنو أنجلين (Angelino) بنو قسي (Banu Qasi)، بنو مردنيش (Martinez)، بنو القبطرنة (Banu Kabturno)، ومنهم من تسمّى باسم عربيّ كأسقف طليطلة عبيد الله بن قاسم، وقاضي نصارى قرطبة الذي كان يعرف باسم وليد بن خيزران، وقومس بن أنتنيان بن يوليانة النصرانية الذي أسلم بعد سنة 246هـ/860م.[23]

2.2 الزواج بالجواري والإماء: عرفت الأندلس كغيرها من بلاد الإسلام وبلاد النّصارى في الفترة القروسطية اتّخاذ الجواري بنوعيهما جواري المتعة وجواري الخدمة، وعموما فإنّ جواري الخدمة هنّ اللاّتي جاوزن سنّ الشباب أو أنّهنّ لا يصلحن للمتعة والتسلية، أمّا جواري التسلية والمتعة (السريريات) فكنّ يستخدمن في البيوت والأديرة والحانات.[24]

وأُثر عن عبد الملك بن مروان في المشرق أنّه قال: "من أراد أن يتّخذ جارية للمتعة فليتّخذها بربرية، ومن أرادها للولد فليتّخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليتّخذها رومية"[25]. وخالفه المستشرق كولن فيما يتعلّق بجواري الخدمة فقال:" إنّ نساء العبيد (في الأندلس) حظين بتقدير كبير وكنّ مطلوبات من الرجال بسبب ما يمتزن به من فضائل ومهارة في الشؤون المنزلية".[26]

وأورد السقطي بشأن اتّخاذ الجواري في الأندلس أصنافا أخرى ممّا كان يجري على ألسنة النّاس، فقال متحدّثا بلسانهم: "الخادم البربرية للّذة، والرّومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزّنجية للرّضاع، والمكّية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطّرب والانكسار... والبربريات أطبع الخلق على الطّاعة وأنشطهم للعمل وأصلحهم للتوليد واللذّة وأحسنهم للولد، وبعدهنّ اليمنيات ويشبههنّ العرب، والنّوبة أكثر الخلق إذعانا للموالي، وكأنّما فطروا على العبودية، وفيهم السّرقة وقلّة الأمانة، والهنديات لا يصبرن على الذلّ، ويرتكبن العظائم ويسهل عليهنّ الموت، والزّنجيات أشدّ خلق الله

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

وأجلدهم على الكدّ، وفيهنّ صنان يمنعهنّ في الغالب من اتّخاذهنّ، وفي الأرمنيات الحسن والبخل وقلّة الانقياد وخاصّة القرصاريّات تعود الثيّب كالبكر".[27]

وكان للأمير عبد الرحمن الأوسط حصّة الأسد في اقتنائهنّ، والاستكثار منهنّ.[28] وليس ثمّة شكّ من أنّ الأندلس لم تعرف عصرا كعصر المنصور بن أبي عامر، الذي ملأ الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، حتّى لقّب بالجلاّب. وكان امتلاك الجواري يتمّ بعد شرائهنّ من سوق النّخاسة (سمّيت "المعرض" بالأندلس)[29]، بواسطة عقد مكتوب يحرّره كاتب عدل، ومن شروطه: وجود طرفي العقد (البائع والمشتري)، وكتابة جنس الجارية واسمها ومواصفاتها وما تحسنه من صنائع وفنون ومعارف، والثّمن المحدّد لبيعها، الذي يجب الإدلاء بقبضه نقدا من المشتري، وكذا سلامة الجارية من العيوب، ويراعى في معرفتها إن كان العيب خفيّا رأي ثقتين من قوابل النساء وثقتين من أطبّاء الرّجال، إلى جانب إقرارها بملكية بائعها عند البيع، وشهادة عدلين من الرجال على صحّة العقد، ثم تدوين تاريخ العقد بالضّبط.[30]

وقد دعت الشريعة الإسلامية إلى تحرير الإماء والجواري من الرّقّ وعتقهنّ والتزوّج بهنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[31]، وكانت الجارية إذا أنجبت تسمّى أمّ ولد، ولا يجوز عندئذ بيعها أو هبتها، وكثيرا ما كانت تعتق ويتزوّجها مالكها.[32]

وكان الزواج بالجواري من السّبي يتمّ بعد عتقهنّ، ومن أمثلة ذلك أنّ سعيد بن منذر ابن سعيد البلّوطي قاضي القضاة وصاحب الصلاة في المسجد الجامع بقرطبة على عهد الحكم المستنصر، كانت له جارية يحبّها حبّا شديدا، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فقالت له ساخرة به- وكان عظيم اللحية- إن لحيتك أستبشع عظمها، فإن حذفت منها كان ما ترغبه. فقام بتلطيفها، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به، وكان في جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فخطبها لنفسه أمام الحضور فقبلت به، فتزوجها في ذلك المجلس بعينه.[33]

وكان الإقبال على الجواري في المجتمع الأندلسي، لاستعمالهنّ في بيوت العامّة والخاصّة لغرضين أولهما التسرّي (المتعة)، وثانيهما الخدمة. وحدّد ابن العطّار سعر الأمة من

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الوخش ما بين خمسين إلى ستّين دينارا[34]، وقد يحدث أن ينخفض ثمن الجارية فلا يزيد عن عشرين دينارا عامرية، وإن تعلّق الأمر بابنة عظيم من عظماء الروم، بسبب كثرة السّبي كما حدث زمن المنصور بن أبي عامر[35]. بينما قد يتجاوز سعر الجارية سقف الألف دينار مثلما حدث مع ابن رزين صاحب السّهلة الذي اشترى جارية ابن الكتّاني المتطبّب بثلاثة آلاف دينار[36]، وكما حدث مع الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الثاني الذي تعلّق بجارية، لكنّ أخاه هشام سبقه إليها فصارت له، فلمّا ولي الأمير محمد، تاقت نفسه إليها فأرسل إلى أخيه هشام رسولا معه عشرة آلاف دينار مقابل عودتها له[37]. ويبدو أنّ أحدا لم يتجاوز المنصور بن أبي عامر في زمانه إنفاقا على الجواري، فقد فاق ما أنفقه في شراء الجواري وبيعهنّ عشرات ألوف الدنانير.[38]

ولا جرم أنّ العليّة من الإماء المرتفعات، كانت غالية الثمن بسبب أوصافها الجمالية وقدراتها العقلية ومواهبها الشخصية، التي تجعلها تتميّز عن غيرها، ومن ذلك مثلا أنّ جارية لابن الكتّاني - الذي كان أول من غالى في ثمن القيّنات بالأندلس بتعليمهنّ وتدريبهنّ حتّى يصبحن متألّقات- " وكانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها، لم ير أخفّ منها روحا، ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا أطيب غناء، ولا أجود كتابة، ولا أملح خطا، ولا أبرع أدبا، ولا أحضر شاهدا على سائر ما تحسنه وتدّعيه، مع السّلامة من اللّحن فيما تكتبه وتغنّيه، إلى الشّروع في علم صالح من الطب، ينبسط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة، وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة، وغير ذلك ممّا يقصر عنه كثير من منتحلي الصّناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صناعة الثّقاف والمجاولة بالحجفة واللّعب بالسيوف والأسنّة والخناجر المرهفة، وغير ذلك من أنواع اللّعب المطربة، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ولا عديل. "[39]. وكانت هذه الأوصاف تجعل من جارية المتعة تتمتّع بالعيش الرّغيد حيث توكّل القهرمانة بخدمتها مع عدّة رواشد من الجواري.[40]

ولا غرو أن تجد من الجاريات من ترضى أن تنزل من مستوى جواري المتعة (السراري)، رغم ما كانت تحظى به من رغد العيش وحسن الحال والرّفاهية، إلى مستوى جواري الخدمة، فقد نقل إلينا ابن حزم "أنّ جارية رائعة جميلة بيعت في تركة سيّدها بعد وفاته، فانتقلت إلى دار ابن الرّكيزة محمد بن وهب، لكنّها امتنعت عن الرّجال بعده، وكانت

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

تحسن الغناء فأنكرت علمها به، ورضيت أن تصبح خادمة. وفاء لذكرى سيّدها الذي وري في التراب[41]. وعلى العكس من ذلك فقد اشترى ابن عبّاد اعتماد الرميكية واعتقها وتزوّجها، وصارت حظيته من بين كلّ نسائه، وكانت تشاركه في كلّ أموره.[42]

3- المرأة الأندلسية والمظاهر الاجتماعية الأخرى: رغم أنّ الإسطوغرافيا العربية الوسيطية لم تخصّص ما فيه الكفاية من الكتابة الخاصّة بموضوع المرأة بشكل مستقلّ، إذا ما استثنينا بعض ما كتب عنها بأقلام رجالية تعدّ على الأصابع، لا يمكن أن تعبّر عنها بصدق ومصداقية مهما حاولت أن ترقى إلى مستوى الشفافية والموضوعية، ذلك أنّ هذه الكتابة تمثّل المرأة من وجهة نظر الرّجل، وليس من وحي ما أنتجته قرائح النّساء وما يعبّر عن أفكارهنّ وتفكيرهنّ وما يختصّ به عالمهنّ، إلاّ أنّه لا مشاحة أنّ موضوع المرأة الأندلسية والزواج كمظهر اجتماعي نال حظّا أوفر من الكتابة مقارنة بالمظاهر الاجتماعية الأخرى، التي سنحاول تناولها فيما يلي:

1.3 اللّباس وزينة المرأة الأندلسية: ارتدت نساء الأندلس أنواعا مختلفة من اللباس، وممّا شاع عندهنّ لبس المقنّع العراقي الذي كان يحتاج إلى ثوب ورداء من جنسه، كما اختصّت الجواري بلبس البرنس[43]، وساد لبس اللثام والإزار[44]، ولبس السراويل[45] والجباب المصنوعة من الخزّ[46]، والحائك المعروف بالملحفة[47]، والجلابيب والكساء والقمصان التي كانت تعرف بالمحشية[48] والمعصفر والمزعفر والموشيّ من اللباس[49]، بينما كانت الخُمر لغطاء الرأس، وكانت ملابس الشتاء ثقيلة ومحشاة، بينما كانت ملابس الصيف بيضاء خفيفة[50]. والجذير بالذكر أنّه كان من عادة الأندلسيين اتّخاذ اللون الأبيض بدل الأسود في الحداد، وفي ذلك قال الحلواني تلميذ ابن رشيق[51]:

إذا كان البياض لباس حزنٍ	بأندلسٍ فذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبي	لأنّي قد حزنت على شبابي

وقال ابن شاطر السرقسطي[52]:

قد كنت لا أدري لأية علّةٍ	صار البياض لباس كل مصاب
حتى كساني الدّهر سحق ملاءةٍ	بيضاء من شيبي لفقد شبابي

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

2.3 الحليّ والدّهون والعطور: أمّا بالنّسبة للحليّ التي كانت المرأة الأندلسية تضيف بها لمسة جمالية على أناقتها، حيث كانت تتجمّل بالعقود التي يقدّر ثمنها بثلاثة آلاف دينار[53]، وقد زاد بعضها عن ذلك بكثير، حيث ذكر ابن عذاري أنّ الأمير عبد الرحمن بعد أن هجرته جاريته طروب وامتنعت عليه، أمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف دينار استرضاء لها[54]. وكانت الأندلسية ترتدي الخواتم وتشترط أحيانا على الصّائغ أن يكون فصّ الخاتم مميّزا في شكله[55]. كما ارتدت في أذنيها الأقراط، وأُنشدت لعزّ الدولة بن المعتصم بن صمادح في جارية[56]:

صاغت الجوزاء قرطين على	مسمعها والثريا دملجا

ووضعت الأندلسية في رجليها الخلاخل والنّعال الصرّارة التي تلفت أنظار الرّجال بالصوت المنبعث منها. فكانت من النوازل التي ردّ أهل الحسبة عن حكم الشّرع فيها بالنّهى، فقالوا بعقوبة من يصنعها إن لم ينته، وبشقّها للنساء إن لبسنها بعد النّهي[57]. كما كانت تستتر الحرائر بالخمار والنقاب واللثام، حتّى قال شاعرهم[58]:

رأيتُ الشّمسَ تَطْلُعُ منْ نِقَابٍ	وَغُصْنَ البَانِ يَرْفُلُ في وِشَاحِ

ولا مراء أنّ الأندلسيات كنّ يستعملن أيضا بعض الزيوت والدهون يشترينها من العطّارين كطلاء لوجه العروسة وجسدها فيمنعها ذلك من الصلاة بسبب عدم غسله، فعدّ ذلك غير جائز لمن انتمى إلى الإسلام[59]، ويتصدّر المسك وهو عطر أسود قائمة العطور التي عرفت انتشارا في الوسط النّسوي الأندلسي، وكان الطّلب يشتدّ عليه أكثر من غيره، هذا إلى جانب السّوسن وهو ضرب من العطر المزعفر، والعنبر الرّمادي، وزهرة النسرين القريبة في أريجها من العنبر، والورود والزعفران، وورد البنفسج، والأقحوان وزهرة الخُشخاش التي تقترب رائحتها من المسك، وشقائق النعمان وغيرها.[60]

وعموما فإنّ الأندلسيات كنّ إلى زمن متأخّر من الوجود الإسلامي بصقع الأندلس يتنافسن في اتّخاذ الحليّ، وقد أجمل لنا ابن الخطيب الذي عاصر دولة بني نصر بغرناطة ما كانت تتجمّل وتتأنّق به نساؤها فقال: "وحليّهم في القلائد، والدّمالج، والشّنوف والخلاخل من الذّهب الخالص... واللجين في كثير من آلات الرّجلين، فيمن عداهم. والأحجار النفيسة من

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الياقوت، والزّبرجد والزّمرّد ونفيس الجوهر، كثير ممّن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظلّ دولة، أو أصالة معروفة موفّرة". إلى أن قال: "وقد بلغن من التّفنّن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتّنفيس بالذّهبيّات والدّيباجيّات، والتّماجن في أشكال الحلي".[61]

4- الحرّية الاجتماعية للمرأة الأندلسية: كان من نتائج الزواج المختلط وطغيان اتّخاذ السراري بين الخاصّة والعامّة في الأندلس أن تأثّر المجتمع الأندلسي أكثر من أيّ مجتمع في البلاد الإسلامية الأخرى مشرقية كانت أو مغربية، خصوصا بعد أن ظهرت طبقة المولّدين التي ابتعدت بسلوكياتها كثيرا عن المحافظة التي كان يتميّز بها المجتمع العربي في شكله البداوي، فأصبحت المرأة الأندلسية لا ترى مانعا ولا تجد في نفسها حرجا من " الاختلاط بطبقات المجتمع تأسّيا بالرّجال، وتعدّ ذلك من التحرّر".[62]

وقد عبّر أحد الباحثين عن هذه الوثبة التي حقّقتها المرأة الأندلسية بقوله: " أصبحت تعيش في مجتمعها الآخذ بأكبر قسط من الحضارة والتّرف، تنظر إلى الأمام وتستنكف عن الرجوع إلى الوراء، وتأخذ بمقاييس أخرى سواء من حيث الأخلاق، أو الأدوات والتصورات،.. إنّها تعيش في مجتمع مزدحم، محفوف بالطبيعة الحيّة، مليء بالأشياء الثمينة، بالفنون، تتحرك فيه المطامح والأهواء باستمرار، وتتردّد فيه أصداء الشعراء والأدباء والعلماء من كلّ صنف".[63]

وفي قراءته لحريتها من خلال طوق الحمامة قال متحدّثا على لسان ابن حزم: "إنّه يقدّمها لنا وقد خطت خطوات في سبيل تأكيد وجودها وشقّ طريقها وسط هذا العالم المكتظ ساعية للحصول على نصيب من الحرّية والاستقلال بشخصيتها، كلّ ذلك بتزكية من المجتمع ورضى من الرجل بحيث إنّنا نخشى المبالغة إذا قلنا إنّ المرأة الأندلسية كانت تتّجه إلى صورة المرأة العصرية في عالم القرن العشرين".[64]

لا يختلف اثنان أنّ سفور النّساء كان ظاهرة متفشّية في المجتمع الأندلسي، إلاّ أنّ العادة جرت بأن تخرج الحرائر محجّبات بخلاف الإماء، لكنّ المصادر الأندلسية تؤكّد أنّ بعض الحرائر كنّ يخرجن سافرات إلى حيث أماكن الفرجة والنّزهة، فهذا يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرّمادي كان مارّا بقرطبة عند باب العطارين، فرأى جارية برياض بني مروان وكانت موضعا تجتمع به النساء، فوقعت بقلبه، وتقدّم نحوها وسلّم عليها

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

فردّت...، فسألها إن كانت حرّة أم أمة؟ فقالت: بل أمة. ثمّ سألها عن اسمها فقالت: خلوة. فلمّا انصرفت، سار خلفها يتبعها... فتوقّفت حينا فسألها، ما ثمنها إن باعها مالكها؟ قالت: ثلاث مائة دينار. فرحل إلى عبد الرحمن بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة ومدحه بالقصيدة الميمية المشهورة، وحدّثه بأمره، فوصله بثلاث مائة دينار ذهبا، ...وعاد إلى قرطبة فلم يعثر لها بعد ذلك على أثر، ... إلى أن دعاه يوما أحد أصحابه فدخل إلى داره، وما هو إلاّ أن علم أنّها أخت له".[65]

وكان من عادة بعض نساء الأندلس إذا خرجن إلى النهر مع الصّبية أن يطرحن ثيابهنّ ويسبحن فيه دون حرج ولا حياء، ومحلّ الشّاهد ما فعلته حمدة التي كانت بوادي آش[66]. واعتبر خروجهنّ إلى السّوق للتبضّع وشراء ما يلزمهنّ من حاجات أمرا جدّ طبيعيّا، ويقاس على ذلك خروجهنّ في المناسبات إلى المساجد لا سيما ليلة السّابع والعشرين من رمضان التي تعتبر ليلة القدر في المخيال الجمعي للأندلسيين، وفي ذلك يذكر المقّري أنّ امرأة مرّت بالجامع من بنات أجلاّء قرطبة، قد كملت حسنا وظرفا ومعها طفل يتبعها كالظبية،...وقد حفّت بها الجواري"[67]. وكان خروجهنّ يوم العيد أكثر من ضرورة نظرا لخصوصيته الدينية في المجتمعات الإسلامية،

ولم تكن المرأة الأندلسية تحرم من مشاهدة موكب الجند في العادة، لكنّ الأمر قد يخرج عن نطاق السيطرة أحيانا فتتعرّض للمكروه، مثلما حدث مع موكب الجند بقيادة أحمد بن يعلى، الذين بعث بهم الخليفة النّاصر إلى إفريقية لمقاتلة الشيعي معد بن إسماعيل، في الثّامن محرّم سنة 347هـ/31 مارس 958م. وحدث أن تقاذف الغوغاء بالحجارة، فاختلط الحابل بالنّابل، وانبسط جنود السلطان على النساء، فسلبوهن ثيابهن، وفضحوا كثيرا منهنّ؛ فجعل المجرّدات من النساء يتوارين في الزرع المكتل، حياء من الناس، وترقبا لوقت تفرقهم.[68]

ونظرا لما كان يحدث في بعض الأعراس من الملاهي كالمزامير واختلاط الفواجر من النساء وشربهم الخمر مع الفسّاق من الرجال، فقد نهى الفقهاء عن ذلك لأنّه من المحرّمات التي لا يسأل عنها، وأجازوا لمن دعي إلى وليمة عرس فيها هذه المناكر بالتخلّف عنها[69]. واستقرّ رأي الفقهاء على نفس الحكم في كلّ ما يتعلّق بالصلاة والأعياد والمحافل إلاّ أن يفرّق

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

بينهم[70]، وكذا بالأعراس والمآتم (اتّباع الجنائز وزيارة القبور)، والمتنزهات والحوانيت والكنائس وجميع المواضع التي تخرج إليها النساء فيحدث فيها اختلاط بينها وبين الرجال، بما في ذلك جلوس متقبّل الحمّام للنّساء[71]. واستثنوا من ذلك ما كان حفلا قاصرا على النساء والصبيان.[72]

ومن مظاهر تحرّر المرأة الأندلسية أنّها كانت تستطيع أن تعبّر عن عواطفها ومشاعرها، وكثيرة هي الأمثلة التي تقوم دليلا على ذلك، ومن ذلك ما أشار إليه ابن حزم في مواطن كثيرة من مؤلّفه، منها قوله: وإني لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد، وقد بلغ بها حب فتى من إخواني من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود، وكادت تختلط، واشتهر الأمر وشاع جدا حتى علمه الأباعد، إلى ان تدوركت بالعلاج.[73]

وهناك من النّساء من عبّرن صراحة وبكلّ جرأة في شعرهنّ عن شعورهنّ، ومنهنّ أمّ الكرم بنت المعتصم صاحب المرية، وكانت قد هامت بفتى يدعى السمّار فأنشدت فيه شعرا[74]. ولم يكن أمر ولاّدة بنت المستكفي يخفى على ذي بال حينئذ في هذا الشّأن، وهي من عليّة القوم وسراتهم، فقد فاقت في تحرّرها حدود ما يقبله عقل العاقل، وتجاوزت بذلك حدود الشّرع في زمنها، ونظمت أشعارا ماجنة لا يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام.[75]

وممّا يؤسف له كثيرا أنّ المجتمع الأندلسي عرف في هذا العصر نساء انغمسن في الفجور وتردّين في حمأة الرذيلة ومارسن الدعارة في بيوت عرفت ببيوت الحظوة، التي يسمّيها ابن عذاري دار البنات[76]. كما عرفت أيضا بدور الخراج، وممّن عرفن من الخراجيات اللاّتي كان لهنّ دور خاصّة بهنّ في الفنادق على زمن الخليفة النّاصر امرأة تعرف برسيس، قال ابن حيّان: "واستركب (النّاصر) رسيس الماجنة مضحكته في موكبه بسيف وقلنسوة وهي عجوز سوء فاجرة"[77]. وقال ابن حزم مستنكرا هذا الفعل على النّاصر: "وخفّت عليه حتى حمله ذلك على أن أركبها مكشوفة في موكبه بقلنسوة وسيف تقلّدته، على بغل خلفه، بينه وبين الأولاد، في يوم سرور، وشقّ هكذا قرطبة على باب العطارين من الرَّبَض الغربيّ كلّه إلى الزهراء"[78]. ومن المعلوم أنّ الفقهاء وأهل الحسبة شدّدوا في النهي على نساء دور الخراج عن كشف رءوسهن خارج الفندق[79]. ولم يكن البغاء يقتصر على الفنادق فحسب بل تعدّاها إلى

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

استئجار البيوت من قبل بعض الفسّاق من الرّجال في ربض المدينة وفي ذلك قال قائلهم[80]:

كُنّا صِبيانْ ودارتْ الْأَحْـوَالْ
والتحينا وصرنا ذابَ رِجَـالْ
وَكانْ اكْرَيْتْ دْوَيْرَ مِنْ إِنْسَانْ
بِرُبَـــاعِي سَكَنْتُ فِيها زَمَـانْ
وَالرَّبَضْ لَا شُيُوخْ وَلَا حُجَّاجْ
وَأَرَامِـلْ مِـلاَحْ بِـــلَا أَزْوَاجْ
ويجُونِي طُول النَّهَارْ عَنْ حَوَاجْ
وَأَشْيَاتَـا لَّسْ يَنْبَغِي أَنْ تُقَـالْ

وعلى النقيض من حال من رأت في التحرّر تحضّرا بالأندلس من النساء اللاّتي سبق الكلام عنهنّ، وهنّ يمثّلن نسبة معتبرة من مجموع ساكنة هذا الصّقع، يجب أن لا نعمّم هذا الحكم على كلّ نسائه، ذلك أنّه وجد من الأندلسيات من كنّ يحرصن على حجابهنّ كلّ الحرص، وفضّلن العفاف على التكشّف والسّفور، وكنّ يمتهنّ في بيوتهنّ مهنا شريفة ونبيلة، ويحصلن على رزقهنّ بكدّ جبينهنّ، وخير مثال يمكن أن يذكر في هذا المقام الشيخ الزّاهد الصّالح بكار المرواني، الذي كان يصطاد السّمك في ساحل أشبونة، بينما تعينه زوجته وابنته بغزلهما في كسب العيش، وحدث أن ترك وطنه وخرج إلى الجهاد وهو يقول نفسي قتلتني بهواها أفلا أقتصّ منها فأقتلها، ونال شرف الشهادة في الغزو، وفي غيابه طرق طارق من أقاربه باب داره يسأل عن أهله، فأجابته زوجته من وراء الباب، يا هذا إنك لست بذي محرم، ولنا من العجائز من ينظر منّا ويبيع غزلنا ويتفقّد أحوالنا، فجزاك الله تعالى عنّا خيرا، انصرف عنّا مشكورا.[81]

ويبدو أنّ شريحة لا بأس بها من نساء الأندلس اضطررن إلى الخروج للعمل قاصدين العفاف والكفاف، ولا نستطيع الجزم بأنّهنّ كنّ كلّهنّ على حال واحدة، وما من شكّ أنّه كان منهنّ من يخرجن سافرات، ولا نعدم دليلا إن قلنا إنّه كان منهنّ من كنّ متحجّبات

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

فاضلات، وقد جمعت بينهنّ الظروف فكنّ ينشطن في أعمال مختلفة أكسبتهنّ وضعا اجتماعيا يجعلهنّ في مأمن من الوقوع في الرّذيلة، فكان منهنّ الطبيبة والحجّامة والدلّالة والماشطة والنائحة والمغنّية والكاهنة والمعلّمة والمستخدمة والصنّاع في المغزل والنّسيج، وما أشبه ذلك[82]. ويكفي نساء الأندلس فخرا انّهنّ استطعن أن يخرّجن للوجود عملاقا من عمالقة العلم مثل ابن حزم.[83]

خاتمة: إنّه من الأهمّية بمكان الإشارة إلى النتائج التي يمكن الخروج بها بعد التكشيف والتوصيف لموضوع بحثي هذا، ويمكن حصرها في النقط التّالية:

- لم يكن بدعا إقبال المرأة الأندلسية على الزواج عند سنّ البلوغ، بل كان ذلك ينطبق عليها وعلى غيرها من نساء الأمّة الإسلامية خلال العصر الوسيط، وقد قيّد الفقهاء المالكية شروطا لا مناص من توافرها لصحّته.

- تغالى الأندلسيون في هدايا عرس بناتهم الحرائر غلاء فاحشا للترغيب فيهنّ وإنقاذهنّ من العنوسة بسبب بخس أثمان جواري السّبي.

- عرف الأندلسيون نوعين من الزواج: أحدهما الزواج المختلط (الزواج بالحرائر)، وثانيهما الزواج بالجواري، اللّاتي كنّ إمّا جواري متعة (سراري)، أو جواري خدمة، وكان من نتائج ذلك ظهور طبقة جديدة في المجتمع عرفت باسم المولّدين.

- كان الزواج يمثّل أهمّ مظهر اجتماعي في حياة المرأة الأندلسية، وقد صاحبته مظاهر اجتماعية أخرى تمتّ بصلة إليه كاللباس وما يتعلّق بزينة المرأة من حليّ ودهون وعطور وغير ذلك ممّا كان يعتبر خصوصية أندلسية.

- كان لطبقة المولّدين الأثر الكبير في تغيير الكثير من سمات الحياة الاجتماعية بالأندلس، ولعلّ أبرزها مسألة حرّية المرأة الأندلسية وتحرّرها من قيود المحافظة، بسبب ما أصابته من تحضّر وترف العيش، الأمر الذي جعلها تتجاوز حدود المحظورات التي نهى عنها الفقهاء في نوازلهم وفتاويهم.

- عبّرت الأندلسيات عن شعورهنّ بكلّ جرأة وخرجن إلى مواضع كثيرة، فضلا عن خروجهنّ إلى العمل فبرزن في أنواع مختلفة من المهن والنشاطات.

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

- قابل ظاهرة السفور والفجور لدى فئة من نساء الأندلس تمسّك فئة أخرى من الأندلسيات بحجابهنّ وحفاظهنّ على عرضهنّ وشرفهنّ وتمسكهنّ بدينهنّ.

- وفي الأخير لا أدّعي أنّني أحطت في موضوعي هذا بكلّ شاذّة وفاذّة، وأحبّ أن أؤكّد على أنّ ما جمعته فيه لا يعدو أن يكون جوانب من حياة المرأة في مجتمع الغرب الإسلامي من خلال المرأة الأندلسية، وأنا شخصيّا أعتقد أنّني مهما أطلت رشاء الدلو في هذا الموضوع فلن أبلغ للبحر قعرا.

الهوامش:

1- ابن العطّار محمد بن أحمد الأموي (330-399هـ)، كتاب الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره ب. شلميطا، ف. كورينطي، مجمع الموثّقين المجريطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة- مدريد، 1983، ص13.

2- ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاّف، تحقيق إحسان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط2، 1987، ص259.----3- المصدر نفسه، ص141.----4- نفسه، ص165.

5- الثعالبي أبو منصور عبد الملك النيسابوري (ت429هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ج2، ص79-80.

6- كتاب الوثائق والسجلاّت، ص7-8./ينظر كذلك الونشريسي أبو العبّاس (ت914هـ)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج جماعة من الفقهاء بإشراف د.محمد حجّي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية- الرباط، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط1، 1401هـ/1981م، ، ج3، ص110-111.

7- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955، رسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحتسب، ص80.

8- ابن الدلاّئي أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، (د.ت)، ص15.

9- المقّري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني(ت1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر- بيروت، ط1، 1997، ج3، ص88./خالد حسن حمد الجبالي، الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتّى سقوط الخلافة (92-422هـ)، مكتبة الآداب- القاهرة، 2004، ص38-39.

10- ابن عبد الواحد المراكشي (ت647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط1، 1426هـ/2006م، ص37.

11- وقد أورد عبد الملك بن حبيب (ت238هـ/852م) في ذلك بابا سمّاه ما يستحبّ للنساء من الخضاب والاكتحال والحَلي. ينظر: كتاب أدب النّساء الموسوم بكتاب الغاية والنهاية، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، صص207-210.

12- أَنَاْ تَايِبٌ يَا لَسْ نُقُولْ بِزَوَاجْ ... وَلاْ جَلْوَهْ وَلاْ عَرُوسَهْ بِتَاجْ. ينظر: ابن قزمان، ديوان ابن قزمان القرطبي (555هـ/1160م) إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق وتصدير فيديريكو كورينتي، تقديم محمود علي مكّي، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، 1415هـ/1995م، ص89.----13- الضبّي أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت599هـ/1203م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط1، 1410هـ/1989م، ج1، ص250.

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

14- يحي بن عمر الأندلسي (ت289هـ/901م)، كتاب أحكام السوق، نص جديد في الحسبة، تحقيق محمود علي مكّي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مطبعة المعهد المصري في مدريد، المجلد 4، العدد 1-2، 1375هـ/1956م، صص120-122./ وقال ابن لبّ بشأن الدفّ المتّخذ في زمانه ، وهو دفّ وصفائح يسمّونه المزنّج: "جرت عادة شيوخ العلماء وايمّة الفقه بحضور موضع ذلك وسماعه ترخّصا لمكان الخلاف"، أي لاختلاف الفقهاء في ذلك. ينظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص252.----15- ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص83.

16- حسين مؤنس، فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)، دار الرشاد- القاهرة، ط4، 1429هـ/2008م، ص297./ باستثناء قلّة من كبار القادة كموسى بن نصير وطارق بن زياد الذين اصطحبوا معهم نساءهم وذراريهم. ينظر: Guichard (Pierre). Structures sociales « orientales » et « occidentales » dans l'Espagne musulmane, Paris- La Haye, Mouton, 1977, p.39

17- خالد حسن حمد الجبالي، المرجع السابق، صص48-56.

18- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ومراجعة ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة- بيروت، ط2، 1400هـ/1980م، ج2، ص23./السيّد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية، 1997، ص113.

19- عبد الرحمن علي الحجّي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897هـ/711-1492م)، دار القلم، دمشق- بيروت، ط2، 1402هـ/1981م، صص158-162./راوية عبد الحميد شافع، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة (92-422هـ/711-1031م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- الهرم، ج م ع، ط1، 2006، ص43/44.----20- راوية عبد الحميد شافع، المرجع نفسه، ص41-42.----21- نفسه، ص42.

22- ج.س. كولان، الأندلس، دار الكتاب اللبناني- بيروت، دار الكتاب المصري- القاهرة، ط1، 1980، صص92-96.

23- حسين مؤنس، المرجع السابق، صص341-346./ عبد الرحمن علي الحجّي، المرجع السابق، صص 163-170.

24- عمر إبراهيم توفيق ، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة (سياسيا واجتماعيا وثقافيا)، دار غيداء للنشر والتوزيع- عمّان، ط1، 1432هـ/2011م، ص119.----25- ابن عبد ربّه الأندلسي(ت328هـ)، طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار، مكتبة القرآن- القاهرة، (د.ت)، ص47.----26- ج.س. كولان، المرجع السابق، ص91.

27- السّقطي المالكي الأندلسي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد، في آداب الحسبة، تقديم: ج.س. كولان و إ. ليفي بوفنسال، المعهد العالي للدراسات المغربية، المجلد 21. [Paris, Librairie Ernest Leroux, 1931, p.49-50.

28- [حسين يوسف دويدار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، "138-422هـ/755-1030م"، مطبعة الحسين الإسلامية- القاهرة، ط1، 1414هـ/1994م، صص322-326.-----29- السّقطي المصدر نفسه، ص48.

30- ابن العطّار، المصدر نفسه، ص36-37./ ابن الإخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي(ت759هـ/1329م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تاحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1976، ص238./ محمد بركات البيلي، "المرأة الأندلسية في عصر أموي الأندلس"، مجلة المؤرخ المصري، العدد 16، يناير 1996، ص73-74.

31- سورةالنور، الآية 32.

32- Lévi-Provençal, Evariste. L'Espagne Musulmane Au Xème Siècle: Institutions et Vie Sociale; Avec Vingt-Quatre Planches et Une Carte Hors Texte. Paris: Larose, 1932, p59.

33- ابن حزم، طوق الحمامة، ص157.----34- الوثائق والسجلاّت، ص36. والمقصود بذلك الوضيعة من جواري الخدمة التي لا تحسن صنعة.-----35- ابن عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص37.

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

36- ابن بسّام الشنتريني أبو الحسن علي (ت542هـ)، الذخيرة في محاسن الجزيرة، تحقيق إحسان عبّاس، الدار العربية للكتاب، تونس- ليبيا، ط1، 1981، ج5، ص112.-----37- ابن حيّان أبو مروان حيّان بن خلف، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكّي، دار الكتاب العربي- بيروت، 1973، صص216-218.

38- ابن حزم، المصدر السابق، ص199./ محمد سعيد الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، منشورات دار أسامة- عمّان، ط1، 1404هـ/1984م، ص44.-----39- ابن بسّام، المصدر نفسه، ونفس الجزء والصفحة.----40- محمد بركات البيلي، المرجع السابق، ص76.-----41- طوق الحمامة، ص208.

42- ابن الأبّار القضاعي (ت658هـ)، الحلّة السّيراء، تحقيق إحسان عبّاس، دار المعارف- القاهرة، ط2، 1985، ج2، ص62./ المقّري، المصدر السابق، ج4، ص211.----43- ابن عذاري، البيان المغرب، ط3، 1983، ج3، ص40./المقّري، المصدر السابق، ج1، ص591.----44- ابن بسّام، المصدر السابق، ج2، ص860. ج5، ص378 وص381.

45- راوية عبد الحميد، المرجع السابق، ص82.

46- المقّري، المصدر السابق، ج3، ص128.

47- R.P.A.Dozy, dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, Jean Muller, 1845, pp147-153.

48- رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت1300هـ)، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، من 1979 - 2000 م، ج3، ص210.

49- المقّري، المصدر السابق، ج3، ص484.

50- المقّري، المصدر نفسه، ج3، ص128./الطاهر أحمد مكّي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة- القاهرة، ط2، 1397هـ/1977م، ص44-45.

51- ابن بسّام، المصدر السابق، ج1، ص506، ج2، ص914.

52- المقّري، المصدر السابق، ج4، ص109.

53- مجهول أخبرا مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط2، 1410هـ/1989م، ص111.

54- البيان المغرب، ج2، ص92.

55- المقّري، المصدر السابق، ج4، ص297.

56- ابن بسّام، المصدر السابق، ج5، ص491.

57- ابن عمر، المصدر السابق، ص126.

58- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، شرح د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربي- بيروت، ط2، 1415هـ/1995م، ص58.

59- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص252.

60- هنري بيرس، المرجع السابق، ص287./راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص90.

61- لسان الدين ابن الخطيب (ت776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1424هـ/2003م، ج1، ص40./ ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر- القاهرة، 1424هـ/2003م، ص43.

62- عمر إبراهيم توفيق، المرجع السّابق، ص114.

63- زنيبر محمد، "المرأة في المجتمع الأندلسي"، في مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية- الرباط، محرم 1415هـ/يونيو 1994م، العدد44، السنة التاسعة عشرة، ص112.

64- المرجع نفسه، ص113.

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبرتاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد11- العدد3 (نوفمبر) 1442-1443هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

65- الحميدي أبو عبد الله بن نصر (ت488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر- القاهرة، 1966، صص369-371./ ابن حزم، المصدر السابق، صص120-122.

66- المقّري، ج4، ص287.----67- المصدر نفسه، ج3، ص262.-----68- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص221-222.

69- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، صص250-252.----70- ابن عبد الرؤوف، ثلاث رسائل...، ص74.

71- ابن عبدون، ص، ص47، 49./الجرسيفي، ص121./ابن عمر، أحكام السوق، ص123-124.

72- ابن حزم، المصدر السابق، ص249-250.----73- طوق الحمامة، ص242.----74- ابن سعيد، المغرب، ج2، ص202-203.

75- ينظر تفاصيل أخبارها وأشعارها عند ابن بسّام، المصدر السابق، ج1، صص429-432./المقّري، المصدر السابق، ج4، صص205-207. وإن كان ابن بسّام يرى أنّه: "لولا أن جد الأدب وهزله جد لصنت كتابي عن الكثير من كلام من يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحزم، ويفتح جراب السخف فيصفع به قفا العقل. ينظر: الذخيرة، ج8، ص579.

76- البيان المغرب، ج3، ص81.-----77- المقتبس، نشر: ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الأداب بالرباط، مدريد، 1979، ج5، ص37.

78- رسائل ابن حزم، رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق إحسان عبّاس، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط2، 1987، ج2، ص76.----79- ابن عبدون، المصدر السابق، ص50.

80- ديوان ابن قزمان، صص266-269./ابن سعيد ، المغرب، ج1، صص173-176 وهذه القصيدة مليئة بالأدب الإباحي من الشعر الماجن.----81- المقّري، المصدر السابق، ج3، صص334-340.

82- ابن حزم، طوق الحمامة، ص142.-----83- زنيبر، المرجع السابق، ص115.